تجليات الرؤية ما بعد الكولونيالية في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني "الطيب صالح"

The manifestations of the post-colonial vision in the novel "Season of Migration to the North" by the Sudanese novelist "Al-Tayeb Salih"

سوسن ابرداشة *

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر

الملخص:

تهدّف هذه الدّراسة إلى مقّاربة الرّؤية ما بعد الكولونيالية في رّواية "موسم الهجرة إلى الشّمال" للرّوائي السّوداني "الطّيب صالح"، حيث تعتبر هذّه الرّواية من أهّم العوامل التي شكّلت الأرضية الخصبة لانطلاق الدراسات ما بعد الكولونيالية، وإثراء مختلف جوانبها الفكرية والمعرفية. فضلًا عن كونها حدثا استثنائيا في تاريخ الرواية العربية؛ لِما طرحته من قضايا جوهرية وأفكار هامة، مثّلت جيلًا كاملًا من المبدعين الذّين ظلوا في حالة بحث دائم عن ذّواتهم، تائهين في بلدانهم كما في بلدان الآخرين، هؤلاء الذّين عاشوا نكبة الاستعمار كما عايشوا خيبة الاستقلال، فجاءت نصوصهم معبّرة عن أحلامهم وآلامهم، حاملة لهمومهم وهموم أمة رفضت التبعية ودور الهامش، وقررت إسماع صوتها وفرض سلطتها كمركز له وجود وكيان.

كلمات مفتاحية: ما بعد الكولونيالية؛ رفض الذّات؛ التبّعية؛ المركز؛ الهامش؛ الطيب صالح

Abstract:

This study aims to approach the post-colonial vision in the novel"Season of Migration to the North" by the Sudanese novelist "Al-Tayeb Salih", as this novel is considered one of the most important factors that formed the fertile ground for the launch of post-colonial studies, and enriching its various intellectual and cognitive aspects.

It is also an exceptional event in the history of the Arabic novel. Because of the fundamental issues and important ideas that you raised, they represented a whole generation of creators who were in a constant search for their selves, lost in their countries as in the countries of others. A nation that rejected dependency and the role of the margin, and decided to make its voice heard and impose its authority as a center that has an existence.

Keywords: *: postcolonialism; self-rejection; dependency Center; margin; Tayeb Salih*

*** *** **

* جامعة أبو القاسم سعد الله .الجزائر 02 ـ soucene.bradcha@univ-alger2.dz

مقدمة:

يرتبط تشكيل الهوية وثبت انتماء الكاتب/ الإنسان بعلاقته المطلقة بذّاته وعلاقة هذه الذّات بالآخر، لذلك ففي البحث عن أصلانية الفرد أو هجينيته فإنّه ينطلق من وعيه بذاته وتاريخه وأصوله الممتدة إلى أبعد ما أمكنه الوصول إليه، ولأن الإنسان المبدّع يولد بالفطّرة باحثا وساعيا نحو حقيقته، فإنّ هذا الإشكال يدفعه لطرحه في جلّ أفكاره وكتاباته.

والرواية هي القالب الأدبي الأنسب لحصر وحسر سؤال الانتماء والإجابة عنه، وهي الجنس الأدبي الملائم لطرح إشكاليات قائمة على مجموع التفاعلات الثقافية والإيديولوجية التي تعسّر حلّها كإشكالية (المركز / الهامش) أو (الأبيض / الأسود) أو (المستعمِر / المستعمَر)، ذلك أنّ الرواية تستمد معالمها من مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية، فهي مَلقى العديد من الدراسات والأبحاث ومَجمع مختلف الطروحات المتوازيات والمتناقضات، عبر أزمنة متفاوتة وأحداث مختلفة.

في هذه الدراسة، نحن بصدد طرح موضوع يُعتبر من أهم المواضيع التي تطرق إليه أدب السود أو أدب الزنوج الذي ما يزال مجالا خصبا للتناول حتى الآن بسبب ما له من أهمية، وخاصةً لارتباطه بالدول المهمشة والمسلوب حقوقها . المستعمَرة سابقا ـ ، وهو موضوع الرؤية ما بعد الكولونيالية في سرد السود، وتجلياتها وتمظهراتها.

فإذا كانت الرواية في أدب الزنوج ـ بصفة عامة ـ قد تطرقت لهذا الموضوع في أمثلة كثيرة وهامة، فإن رواية "موسم الهجرة إلى الشمال"[1] للكاتب السوداني "الطيب صالح"[2] لها بدون شك خصوصيتها في التطرق لهذا الموضوع ومعالجته، وذلك بسبب ما ربط الكاتب بوطنه وما يحمله هذا الوطن من جراح، وأيضاً بالنظر إلى خصوصية العلاقة التي تربطه بالغرب، وهي علاقة حضارية معقدة تتلخص في وجود إشكالية المستعمِر والمستعمَر، ومن ثَمَّ جاءت خصوصية نظرة هذا الكاتب التي جسدها للآخر المستعمِر كمركز، والأصلاني المنبوذ كهامش، للذات الرافضة، وللهجرة والغربة، ولكل ما يمثل تجليّات الرؤية ما بعد الكولونيالية في حكيه عن تمزق وانشطار الذات السوداء/ الزنجية في روايته ـ موضوع الدراسة ـ.

انطلاقا ممّا سبق، أردنا طرح مجموعة من الإشكالات تتمثل في:

كيف أثرت التجربة الاستعمارية على المبدع المستعمَر، وما تجليات الرؤية ما بعد الكولونيالية في منتجه الإبداعي ؟

وكيف صاغ خطابه الروائي ما بعد الكولونيالي بعد تخطّيه مرحلة الهامش وتمركزه في موقعه الذي طالب به، ودافع عنه طويلا؟

وما أشكال الهّوية ما بعد الكولونيالية التّي تلبّسته وتلبّست الشّخصيات التّي استعان بها في سرده ؟

قراءة تفكيكية في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال":

نالت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" شهرتها الواسعة كونّها أول الروايات التي تناولت موضوع الصراع الحضاري بين الشرق والغرب، وكونها عبّرت عن رؤية فكرية وإيديولوجية بأسلوب فنّي وإبدّاعي، تمخضّ عنه واحدة من أعظم الروايات التي كُتبت في القرن العشرين.

فمنذ بروز الدراسات ما بعد الكولونيالية التي أولت اهتمامها بآداب الشعوب المستعمرة وقراءتها وتحليلها من أجل الكشف عن السياقات التاريخية والحضارية التي كُتِبت فيها هذه الآداب، والتي مثلت جيلا كاملا وحقبة زمنية متكاملة، والنقاد والباحثين والمهتمين يسعون من أجل تفكيك

الخطاب الروائي ما بعد الكولونيالي وكشف إشكالاته الجوهرية التي تتعرض بالدراسة لعلاقة الأنا بالآخر، والمركز بالهامش، والأبيض بالأسود، خاصة بعد عجز الأوروبيين على "تناول مختلف تعقيدات ما بعد الكولونيالية تناولا وافيا، بسبب تنوع منابعها الثقافية فالنظريات الأوروبية ذاتها انبثقت من تقاليد ثقافية معينة أخفتها الأفكار المزيفة حول "العالمية"، إن ممارسات كتابة ما بعد الكولونيالية تطرح للتساؤل على نحو راديكالي نظريات الأسلوب، والنوع الأدبي، والفروض المتعلقة بالملامح العالمية للغة، فضلا عن الإبستيولوجيات وأنساق القيم."[3]

فقد انطلقت الدراسات ما بعد الكولونيالية استجابة لظروف تاريخية وحضارية، وردًا على كل الزيف الذي طال الشعوب المستعمَرة، سواء أ كانت الشعوب العربية في شمال إفريقيا وآسيا أم الشعوب الإفريقية الزنجية، أم شعوب دول شرق آسيا التي شهدت هي الأخرى أنماط متعددة من الاستعمار، وفي هذا الصدد نجدّ الكاتب السوداني "الطيب صالح" يمثل شريحة واسعة من هؤلاء، ففضلا عن كونه عربي مسلم، فهو زنجي أسود من دولة إفريقية يتميز شعبها بالملامح الزنجية القحة، لذلك يمكننا تصنيف آدابه في خانتي الأدب العربي وأدب السود / الزنوج، ذلك أنّ مفهوم أدب السود هو الأدب الذي يكتبه أصحاب البشرة السوداء لفرض أنفسهم وإسماع أصواتهم بعد القمع والاضطهاد الذي تعرضوا إليه عبر التاريخ؛ لذلك يمكننا اعتبار أيّ إسهام أدبي يقدّمه "الطيب صالح" سواء أكان في الرواية أم في القصة، يدخل ضمن حيّز "أدب الزنوج/ السود".

"فإذا كان الكثير من الدارسين يعتبرون أنَّ إدوارد سعيد وعبد الله العروي هما منظرا الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي، فإنّهم يعتبرون من جهة أخرى أنّ رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للأديب السوداني الطيب صالح هي أساس ظهور نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي وأنّها مهدّت لهذه النظرية، حتى إن بطل موسم الهجرة إلى الشمال "مصطفى سعيد" يمثل شكلا من أشكال المجابهة الحقيقية إذ يصيح (إنني جئتكم غازيا)، وهو يتصور نفسه إلاها إفريقيا يخوض معركة جنسية يراها البعض سادية، والغرض منها تحقير الآخر وتدميره بلا شفقة؛ ففي اللّاوعي يقيم بطل هذه الرواية مفارقة حادة بين صنيع الإنجليز في السودان الذين استعمروه فاتحين بالقوة العسكرية الفائقة وبين صنيعه هو، إذ أنّه أتاهم غازيا في عقر دارهم في لندن ليثأر مما فعلوا، وينتقم بوسيلة أخرى وهي غزو نسائهم؛ وهكذا فليس غريبا أن يشكل الروائي **الطيب صالح** مدرسة امتد تأثيرها إلى العديد من البلدان العربية،[4] والبلدان الإفريقية وغيرها من البلدان التي تعرضت للاستعمار لاسيّما وأن الرواية تُرجمت للعديد من اللغات، فكانت مرجعًا مُهمًا عاد إليه العديد من المبدعين الساعين للبوح بما في حوزتهم من أسرار وخبايا حول حقيقة المستعمِر وفضح تاريخه المزيف، عن طريق الرد بالكتابة.

تُطالعنا الرواية بداية، بقول الراوي: "عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم في أوروبا ، تعلمت الكثير وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى.."[5]، فشخصية الراوي في الرواية هي الشخصية الساردة للأحداث، التي تصف لنا حال البلد وأوضاعه بعد غربته التي دامت سبع سنوات، من أجل نيل العلم والتحصل على أعلى الشهادات خدمة لوطنه وشعبه الذي لم يغب عن باله فترة سفره، وظلَّ محافظا على عاداته وتقاليده

رغم كل ما شاهده من تفتح في الضفة الأخرى من العالم، يقول الراوي عن عودته:

"بدأت أعيد صلتي بالناس والأشياء في القرية، كنت سعيدا تلك الأيام كطفل يرى وجهه في المرآة لأول مرة، وكانت أمي لي بالمرصاد تذكرني بمن مات فأذهب لأعزي وتذكرني بمن تزوج فأذهب لأهنئ، جبت الأرض طولا وعرضا معزيا ومهنئا.."[6]، فهو يصف مدى ارتباطه بأمه ووطنه وشعبه، ويجعل من كل هؤلاء موضوعا هاما للطرح والتعريف بهويته، بدءًا بأدق التفاصيل التي شكّلته وشكّلت طبيعته وأحداث عودته، التي تمحّورت في البداية عن سؤال أهل بلدته عن الشعب في الضّفة المقابلة وعن صفاتهم وأشكالهم وحياتهم وأعمالهم وغير ذلك..

فقد مثّل الغرب / المستعمِر عقدة للشعوب المستعمَرة لا تزال قائمة إلى يومنا هذا، وظلّت فكرة التفوق الغربي مهيمنة على عقول الكثيرين الذّين لا يمكنهم الاعتراف بقدرتهم هم الآخرين على التحرر والتطور والتخلص من التبعية الغربية، وربما يعود ذلك لاستسلامهم المطلق لضعفهم وخوفهم من الحرية والمسؤولية، وجهلهم لمكامن قوتهم أو اعتقادهم المطلق بعدم تفوقهم دون العودة إلى السلطة الغربية، وربما كان هذا هو السبب في حجّ النّخبة من الشعوب الضعيفة نحو الدول الغربية من أجل استحقاق الشهادات ونيل أعلى المراتب في جميع المجالات، دون استثناء.

ففي حين يحتفي أهل البلدة بشخصية الراوي التي يعلم الجميع أنّها نالت شهادة الدكتوراه من لندن، نجدّ جهلهم بنيل شخصية "مصطفى سعيد" هي الأخرى شهادة تماثل شهادة الراوي يدفعهم إلى احتقاره واعتباره نكرة، على الرّغم من أنّ الراوي يكشف لنا عمق ثقافته ومدى اتساع علمه ومعرفته، لكنّ كتمه لكل ذلك جعله يبدو منبوذا كبقية أهل البلدة الذين يتفننون في احتقار بعضهم البعض، ويعمدون إلى عدم احترام آراء غير آرائهم.

يقول الراوي: "قضيت في البلد شهرين، كنت خلالها سعيدا.. دعيت لحضور لجنة اجتماع المشروع الزراعي.. دخلت عليهم وقد كان مصطفى بينهم، وكانوا يبحثون أمرا يتعلق بتوزيع الماء على الحقول، ويبدوا أنّ بعض الناس ومنهم من هو عضو في اللجنة كانوا يفتحون الماء قبل الموعد المحدد لهم، واحتد النقاش وتصايحوا بعضهم على بعض وفجأة رأيت مصطفى يهب واقفا، هدأ اللغط واستمعوا إليه باحترام زائد، وقال مصطفى أنّ الخضوع للنظام في المشروع أمر مهم وإلا اختلطت الأمور وسادت الفوضى، وأن على أعضاء اللجنة خاصة أن يكونوا قدوة حسنة لغيرهم، فإذا خالفوا القانون عوقبوا كبقية الناس، ولما فرغ من كلامه هزّ أغلب اللجنة رؤوسهم استحسانا وصمن من عناهم الكلام... لم يكن لدي أدنى شك أنّ الرجل من عجينة أخرى"[7]

فشخصية "مصطفى سعيد" هي شخصية محورية في حبك أحداث الرواية، وهي اللغز الذي يبثه الكاتب منذ الولوج في النص، فيشدّ القارئ كل ما يتعلق بهذه الشخصية التي يبدو أنّها مختلفة عن طبيعة الشخصيات المذكورة في الرواية، فهو يحكي عن نفسه قائلا: "انصرفت بكل طاقتي لتلك الحياة الجديدة وسرعان ما اكتشفت في عقلي مقدرة عجيبة على الحفظ والاستيعاب والفهم .أقرأ الكتاب فيرسخ جملة في ذهني، ما ألبت أن أركز في عقلي في مشكلة الحساب حتى تتفتح لي معاقلها، تذوب بين يدي كأنها قطعة ملح وضعتها في الماء.. تعلمت الكتابة في أسبوعين، وانطلقت لا أنوي على شيء، عقلي كأنه مدية حادة، تقطع في برودة وفعالية... طويت المرحلة الأولى في عامين، وفي المدرسة اكتشفت ألغازا أخرى، منها اللغة الإنجليزية فمضى

عقلي يعضض ويقطع، كأسنان محراث... الكلمات والجمل تتراءى لي كأنها معادلات رياضية والجبر والهندسة كأنها أبيات شعر... العالم الواسع أراه في دروس الجغرافيا، كأنها رقعة شطرنج... كانت المرحلة الوسطى أقصى غاية يصل إليها المرء في التعليم تلك الأيام وبعد ثلاثة أعوام، قال لي ناظر المدرسة وكان إنجليزيا: هذه البلد لا تتسع لذهنك، فسافر، اذهب إلى مصر أو لبنان أو إنجلترا ليس عندنا شيئا نعطيك إياه بعد الآن.."[8]

من هنا بدأت مسيرة "مصطفى سعيد" المليئة بالأحداث والمغامرات، ومن هنا بدأ مسار الرواية يتحول نحو موضوع أحدثَ بلبلة وأقام فوضى في أوساط الساحة الأدبية والنقدية، ذلك أنَّ "الطيب صالح" وعلى لسان شخصيته "مصطفى سعيد" عبّر بكل شجاعة عن رؤيته الإيديولوجية للكولونيالية، فجاءت آراءه ثاقبة وملهمة للعديد من المبدعين والمهتمين بالشعوب المضطهدة والمرفوضة، وكانت أفكاره التي طرحها إرهاصات لبداية النظرية ما بعد الكولونيالية، "فالرواية ومنذ نشأتها أول مرة في منتصف الستينات توطدت ككتاب مقدس في أوساط المثقفين، وهي للآن في مصاف الأدب العالمي، وقبل أن يصدر "صامويل هنتفتن **samuel huntington** مؤلفه "صراع الحضارات" تطرق "الطيب صالح" إلى هذه الموضوعة كشرخ ينسحب ويتجلى في بعض المصائر الفردية لشخصيات الرواية، فالرواية تعالج موضوعا مركزيا للأدب العربي الحديث عنوانه تحدي الغرب، فالكاتب كان يدرك من خلالها أنّ الغرب لم يحمل إلى الشرق حضارته فقط بل الاستعمار أيضا، فلقد كان يقدم قراءة سردية ما بعد كولونيالية مبكرة للشرخ الذي أحدثته تجربة الاستعمار في الأرواح الذين وقع عليهم الاستعمار في إفريقيا والعالم العربي ككل"[9]، ولعلّ السبب الكامن في تمكنه من بلورة رؤية ما بعد كولونيالية صائبة يكمن في تحكمه بمفاتيح "الثقافة الغربية فكرا مكتوبا فلقد قرأ أعمال الكلاسيكيين والمعاصرين الأوروبيين، وعايش الحضارة الأوروبية أنماط سلوك وطريقة حياة ومنهج وتفكير. وهذه قدرة على الاجتهاد والتحصيل والتشبع كانت لديه مقدرة على استخراج اللؤلؤ من أعماق الأدب العربي، والجوهر من أعماق الآداب الغربية والإنجليزية منها خاصة، وكانت لديه المقدرة على فهم روحي الحضارتين والمقارنة الذكية بينهما."[10] حتى أنّنا نلحظ تمازج الثقافتين العربية والإنجليزية حين يترك المجال لشخصية البطل "مصطفى سعيد" بسرد قصة حياته، وحكيه عن ماضيه في الضفة الأخرى من العالم، حين قرر الانتقام من المستعمِر بطريقته الخاصة، عن طريق تعذيب نسائه ودفعهن إلى الانتحار أو الجنون، فقد ظل "مصطفى سعيد" يلاحق النساء الشقراوات، يغريهن بسماره، ويبهرهن بكلامه، وعذوبة لسانه، وحلاوة حديثه، يستفحل كي يثير النساء، فيستسغنَّ ذكورته ويعشقنّ تفاصيل حكاياه وسرده، يقول عن ذلك: "كانت لندن خارجة من الحرب من وطأة العهد الفكتوري، عرفت حانات تشلسي وأندية هامستد، ومنتديات بلومزبري، أقرأ الشعر أتحدث في الدين والفلسفة، وأنقد الرسم أقول كلاما عن روحانيات الشرق ، أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة في فراشي، ثم أسير إلى صيد آخر، لم يكن في نفسي قطرة من المرح، كما قالت ميسز روبنسن.. جلبت النساء إلى فراشي من بين فتيات جيش الخلاص، وجمعيات الكويكرز، ومجتمعات الفابيانين، حين يجتمع حزب الأحرار أو العمال أو المحافظين أو الشيوعيين، أسرج بعيري وأذهب.

وفي المرة الثانية قالت لي جين موريس: "أنت بشع، لم أر في حياتي وجها بشعا كوجهك"

وفتحت فمي لأتكلم ولكنها ذهبت، وحلفت في تلك اللحظة وأنا سكران بأنني سأتقاضاها الثمن في يوم من الأيام، وصحوت وآن هامند في فراشي .. أي شيء يجذب آن هامند إليّ؟ ... لقيتها دون العشرين، كانت حية وجهها مرح... رأتني فرأت شفقا داكنا كفجر كاذب...كانت عكسي تحن إلى مناخات استوائية وشموس قاسية... وأنا جنوب يحن إلى الشمال والصقيع... حولتها في فراشي إلى عاهرة، كنت أعرف كيف أحركها... وذات يوم وجدوها ميتة انتحارا بالغاز ووجدوا ورقة صغيرة باسمي، ليس فيها سوى عبارة: "مستر سعيد، لعنة الله عليك"[11]

فالعلاقة التي جمعت بطلنا بالنساء الإنجليزيات تُشبه إلى حد بعيد علاقة الاستعمار بالبلدان المحتلة، فمثلما استغل الاستعمار خيرات الدول ونهبها دون أن يهتموا بشعوبها ومآلهم، راح سعيد يستغل نساءهم في الضفة المقابلة من أجل إشباع رغباته وإرضاء غريزته وشهوته.

إنَّ مصطفى سعيد كان دائم الشعور بالوحدة والضياع "وسط حضارة غربية خالية من روحانيات الشرق جعلته معقدا غير قادر على الانسجام معها والذوبان والانصهار فيها، إلا إذا تجرد من أصالته وتراثه وحتى ولو تخلى على جذوره، فهل كان سيجد نفسه في هذه الحضارة رغم سواد لونه وجذوره الإفريقية ؟"[12] وهل باستطاعته أن ينسى لونه الذي ظلت الكثيرات منهن يُذّكرنّه به في أكثر لحظاته نشوته؟

قد يكون كل ذلك سبب تهوره وانتقامه اللّامبرر، وسبب غربته واندفاعه نحو الجنس لإحساسه بالرضا عن ذاته وانتمائه وشكله، "ولعل الجنس هو الصورة العارية التي عاشها "مصطفى سعيد" في لندن، فالغربة والجنس متلازمان، حيث أن كل غريب في بلد غير بلده يفكر في الجنس ليبحث فيه عن السلوى أو يحقق به ذاته"[13]، على الرغم من أنّ القارئ للرواية يلمس الرفض العلني لذاته وسعيه نحو تعويض هذا النقص بحياة شبيهة بحياة الغرب.

تقدم شخصية "سعيد مصطفى" رؤية إيديولوجية وثقافية واجتماعية، توضح صورة العلاقات على حقيقتها، علاقة الإنسان بذاته، علاقة المركز بالهامش، علاقة الأسود بالأبيض، علاقة الرجل بالمرأة وغيرها من العلاقات التي تبني الإنسان وتحدد أطّر تفاعله ومؤثرات تكوينه، والجدّير بالذّكر أنَّ هذّه الرؤية لم تكن لتتشكل لولا كاتبنا "الطيب صالح" الذي لم يسعّ لإبراز إيجابيات بطله، بل راح يسهب في حكي سلبياته وزلاته، "أي أنّه لا يتمسك بطرح بطل إيجابي، بل يتنكبه ليوظف بطله السلبي ضمن إطار السخرية الهادفة."[14] وبناءً عليه، فإنّ الإستراتيجية التي اتكأ عليها الكاتب شكلت لنا في النهاية وحدة نصية متكاملة ومنسجمة، وعمق فني رهيب.

تتجلى الرؤية ما بعد الكولونيالية في الرواية في تقوقع بطل الرواية داخل مدارات مغلقة، لا تعرف الضوء الساطع ولا صخب المدن واشتعالها، "وحيث البرد يسود العلاقات وتتقلص فضاءات الرحابة لندخل مع السرد إلى داخل غرف مظلمة أو حانات معتّمة، تحتوي الأحداث وتبسط عليها وطأة الشعور بالاغتراب والاختناق الذي تتزايد وطأته حتى في القاعات المزدحمة التي تنفجر فيها الموسيقى كالجنون العاصف، طاردة الهدوء والسكينة، فلا يبقى للبطل الذي أظلمت روحه ـ مثل مصطفى سعيد ـ سوى الانغلاق على نفسه كالصدفة المنطوية على رغبة انتقامها، لا يبالي بما يقع في الخارج من مباهج الفنون وانجازات الإبداع."[15]

وهو ما يؤكده كما في قوله: " في قاعة المحكمة الكبرى في لندن، جلست أسابيع أستمع إلى المحامين يتحدثون عني، كأنهم يتحدثون عن شخص لا يهمني أمره، كان المدعي العام سير آرثر هينغز عقل مريع، أعرفه تمام المعرفة، علمني القانون في أكسفورد، ورأيته من قبل في هذه المحكمة نفسها وفي القاعة نفسها، يعتصر المتهمين في قاعة الاتهام اعتصارا، نادرا ما كان يفلت متهم من يده ، ورأيت متهمين يبكون ويغمى عليهم، بعد أن يفرغ من استجوابهم، لكنه هذه المرة كان يصارع جثة.

هل تسببت في انتحار آن هامند؟

لا أدري وشيلا غرينود؟

لا أدري وإيزابيلا سيمور؟

لا أدري هل قتلت جين موريس؟

نعم ...قتلها عمدًا؟ نعم

كان صوته كأنه يصلني من عالم آخر، ومضى الرجل يرسم بحذق صورة مريعة لرجل ذئب تسبب في انتحار فتاتين، وحطم امرأة متزوجة، وقتل زوجته، رجل أناني انصبت حياته كلها على طلب اللذة.."[16]

يُصور الكاتب من خلال المقطع السابق مجموعة من المفارقات، التي تنطلق من حجم الاختلاف بين شخصيتي "مصطفى سعيد" الزنجي القروي المحافظ، و"مصطفى سعيد" القاتل الغربي المتهور، وكمية الاستهتار الموجودة في سرده لأحداث المحكمة، واحتقاره لأعضاء هيئتها وتقزيمه لحجم الجرائم التي اتُهِم بها، واعترافه بالقتل دون تردد أو خوف. فهو لا يرتجف حين يُصرح أنّه هو من قتل زوجته "جين موريس" ولا أحد غيره، قتلها لأنها آذته في شخصه وكرامته، ولأنها خانته، ولأن فعل الخيانة في قاموسه من أكبر الكبائر التي ترتكبها الزوجة، فكان جزاؤها القتل دون تردد أو تفكير.

ترمز صورة المرأة في رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" إلى قطبين محوريين في الرؤية الإيديولوجية التي طرحها الكاتب، من خلال النماذج التي وظفها في تشكيله السردي، فإذا كانت "جين موريس" المرأة الغربية ماجنة وعاهرة ـ كما تم وصفها من قبل "مصطفى سعيد" ـ فذلك إسقاط على الجهة الغربية لما تحمله من ظلم واستعباد وانتهاك للبلدان التي قامت باحتلالها، فجين موريس الإنجليزية هي نفسها الاستعمار الإنجليزي الذي دخل السودان غازيا، وناهبا، وسارقا ومعتديا، ومغتصبا، وقاتلا، وكل ما قام به "مصطفى سعيد" إزاءها كان في إطار الانتقام والثأر.

بينما ترمز شخصية "حسنة بنت محمود" المهادنة إلى الشرق متمثلا في دولته "السودان"، فها هو "مصطفى سعيد" يمضي عقوبته ويقرر العودة إلى موطنه السودان ويحاول أن يقيم علاقة إنسانية صحيحة وصادقة، "فيطلب من "حسنة بنت محمود" الزواج، وتنجب له ولدين يأمل أن يتربيا أحسن تربية، وفي وجودهما يتشبع بهواء وروائح البلد وتاريخه، لتحتل حياته مكانها الصحيح كشيء له معنى إلى جانب معان أخرى أعمق مدلولا، لقد نجح "مصطفى سعيد" في زواجه مع "حسنة بنت محمود" إلى حد ما وذلك لصدق نواياهما، فهو لم ير فيها مجرد وعاء للّذة وإشباع رغباته وشهواته، بل رأى فيها إنسانا له أحاسيسه وعواطفه أكثر من كونّها أدّاة لممارسة الجنس، كما عملت هي أيضا على أن تقدّم له جسدا وروحا لا الجسد وحده، ومن ثم كانت علاقتهما علاقة إنسانية صادقة."[17]

ولعلّنا في احتفائنا بالكاتب والرواية نكون قد هضمنا اجتهاد بعضٍ من الكتاب الذين سبقوه في تناول قضية الصراع الحضاري القائم بين الشرق والغرب، أو علاقة المستعمِر والمستعمَر، إلا أنّه لا يمكن لأيّ كان أن ينكر تميزّ الرواية ونجاحها

في" سير أغوار المواجهة بين الشرق والغرب من منظورين حضاريين متباينين، وإن كان توفيق الحكيم في "عصفور من الشرق" ويحي حقي في "قنديل أم هاشم" و"سهيل إدريس "في الحي اللاتيني، قد سبقوا الطيب صالح في طرح هذه المواجهة بين الشرق والغرب حضاريا، إلا أنّ الجديد في "موسم الهجرة إلى الشمال" أنّها أضافت للصراع بعدًا أعمق حين جعلت من "عقدة اللون" و "أسطورة الفحم الأسود" مكانا بارزا في بنية الرواية"[18]، أي أنّه تفوق حين جمع بين محورين مفصلين وأسس خطابا يندرج ضمنهما، فهو الزنجي العربي الذي تمكنّ من فك شفرة المستعمِر فعاث في أرضهم ونهبهم أعزّ ما يملكون.

وهو ما يجعلنا نجزم أنَّ "الطيب صالح" بروايته "موسم الهجرة إلى الشمال" كان من الأوائل الذين مهدوا لظهور "نظرية الخطاب ما بعد الكولونيالي"، وأسهموا في قيامها واستقلاليتها كنظرية قائمة بذاتها، لِما تناولته هذه الرواية من توصيف لحالة المثقف (النخبة) ما بعد الكولونيالي وما تركه الاستعمار من خلفيات وأفكار سلبية، أثرت على هويته وعمدت إلى دفعه لرفض ذاته وانتمائه في بلدان فضّلت الخنوع والخضوع والتبعية والانبهار بالنموذج الغربي، على التحرر وفرض سلطتها ونفض الغبار عنها، فنالت لقب الاستقلال بصفة شكلية فقط.

الخاتمة:

بعد هذه القراءة المبسّطة في عوالم رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" للروائي السوداني "الطيب صالح"، واستكشاف أبرز القضايا والأفكار التي أثارها الكاتب خَلُصنا إلى مجموعة من النقاط، نذكر منها:

- أثارت رواية "موسم الهجرة إلى الشمال" مجموعة من القضايا التي اعتُبِرَت لفترة طويلة خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها، أو تخطيها، لكنّه استطاع وبعبقريته الإبداعية أن يحيل إلى حقيقة الآخر/ المستعمِر ويكشف عن زيفه وتزويره للتاريخ، غير متناسٍ لخنوع وخضوع واستسلام الشعوب المستعمَرَة لاسيّما السوداء منها.
- تمثلت تجليات الرؤية ما بعد الكولونيالية في الرواية من خلال السياق الحضاري المهيمن على حيثيات الأحداث، من ناحية صدقها وقوة تعبيرها ودقة تفاصيلها، والتعمق في قراءة الخطاب الكولونيالي ومن ثَم الرد عليه بنفس الطريقة والأسلوب، إننا أمام عبقري الرواية العربية، الذي استطاع أن يمثل المبدع الزنجي/ الأسود أحسن تمثيل.
- استطاع الكاتب أن يوصل للقارئ معاناة الزنجي المهمش والمنبوذ في مجتمعات ترفضه رفضًا قاطعًا، وتعتبره أقل إنسانية من الأبيض، من خلال اعتماده على تصوير ووصف الواقع الاجتماعي المُعاش لهذا الزنجي ورصد حركات وتصرفات وحوارات الآخر ضده.
- عمدّ الكاتب في صياغته لخطابه الفني وتشكيله لهويته الزنجية / العربية، إلى استقاءه مصادر إبداعه من أهم منبعين هما: التراث والأدب، فاعتبر تراثه الإفريقي الأسود هويته واستقى منه كل ما يمدّه بالإلهام والقوة، ونهل من أدبه العربي المقومات التي أسس على إثرها خطابه الإبداعي عامة، والذي وُفق فيه بشكل كبير.

الهوامش والإحالات:

[1] الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 14، 1987م.

[2] **الطيب صالح**: هو أديب وصحفي سوداني، يُعَد واحد من أشهر الأدباء العرب في القرن العشرين، اشتُهِر في الرواية والقصص القصيرة؛ فأطلق عليه النقاد لقب "عبقري الرواية العربية" ، عاش في بريطانيا وقطر وفرنسا، عمل كصحفي لدى إذاعة بي بي سي البريطانية وللعديد من المجلات العربية، كما كان عضواً في منظمة اليونسكو، عُرِفَ بروايته "موسم الهجرة إلى الشمال" التي صدرت في عام 1966م، والتي تعتبر من أهم الروايات في الأدب العربي .تُرجمت رواياته وقصصه القصيرة إلى ما يزيد عن عشر لغات.

وُلِد الطيب في إقليم مروي شمالي السودان بقرية كَرْمَكوْل بالقرب من قرية دبة الفقراء وهي إحدى قرى قبيلة الركابية التي ينتسب إليها، في 12 يوليو 1929م، وتُوفي في إحدى مستشفيات العاصمة البريطانية لندن التي أقام فيها في ليلة الأربعاء 18 شباط/فبراير 2009 الموافق 23 صفر 1430هـ. عاش مطلع حياته وطفولته في إقليم مروي. هو الوحيد الذي حصل على الثانوية العامة من المنطقة، فانتقل إلى ولاية الخرطوم لإكمال دراسته، ذهب لدراسة تخصص الزراعة من كلية غوردون التذكارية، جامعة الخرطوم لكنه لم يكمل دراسته في النهاية؛ عَمِل مدرساً للصفوف الإعدادية لفترةٍ من الزمن حتى سافر إلى إنجلترا ليواصل دراسته في جامعة لندن، وغيّر تخصصه إلى دراسة الشؤون الدولية السياسية.

كتب الطيب صالح العديد من الروايات التي تُرجِمت إلى أكثر من ثلاثين لغة وهي: موسم الهجرة إلى الشمال، عرس الزين، مريود، ضو البيت، دومة ود حامد، منسي، وغيرها... تعتبر روايته "موسم الهجرة إلى الشمال" واحدة من أفضل مائة رواية في العالم. وقد حصلت على العديد من الجوائز. وقد نشرت لأول مرة في أواخر الستينات من القرن العشرين في بيروت وتم تتويجه ك"عبقري الأدب العربي". في عام 2001 تم الاعتراف بكتابه من قبل الأكاديمية العربية في دمشق على أنه صاحب "الرواية العربية الأفضل في القرن العشرين. نقلا عن الموقع الإلكتروني: https://ar.wikipedia.org/wiki/الطيب_صالح تاريخ الزيارة: 2022/02/28م، الساعة: 11.22سا.

[3] بيل أشكروفت، جاريت غرفيت، هيلين تيفين: الرد بالكتابة / النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: شهرت العالم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006م، ص: 31

[4] طارق ثابت: هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي، مجلة الأثر تصدر عن كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح .ورقلة ـ الجزائر، ع 21، ديسمبر 2014م، ص: 106.

[5] الرواية، ص: 5

[6] الرواية، ص: 9

[7] الرواية، ص: 16/15

[8] الرواية، ص: 26 /27/ 28

[9] حامد فضل الله: الروائي الطيب صالح في عيون الألمان، نقلا عن الموقع الإلكتروني: سودانيل، تاريخ الزيارة: 2022/02/28م، الساعة: 22.56سا
http://webcache.google.usercontent.com/search

[10] مجموعة مؤلفين: الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار العودة ، بيروت، لبنان، ط1، 1976م، ص:6

[11] الرواية، ص: 35/34

[12] مراد مزعاش: تجليات الصراع الحضاري في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة إشكالات، مجلة دورية محكمة تصدر عن المركز الجامعي ـ تامنغاست ـ الجزائر، عدد 1، ديسمبر 2012م، ص: 35

[13] المرجع السابق، ص: 35

[14] صالح فخري: في الرواية الفلسطينية، دار الكتاب الحديث، بيروت، لبنان، ط 1، 1985م، ص: 49

[15] جابر عصفور: موسم الهجرة إلى الشمال / تقابلات الطبيعة والوصف، مجلة العربي، العدد 564، نوفمبر 2005م، ص: 78/77.

[16] الرواية، ص: 35 /36

[17] مراد مزعاش: تجليات الصراع الحضاري في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، ص: 41

[18] عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي: رؤية الموت ودلالتها في عالم الطيب صالح الروائي من خلال روائيتي: "موسم الهجرة إلى الشمال" و"بندر شاه"، الحولية الخامسة عشر. الرسالة المائة واثنين، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العالي، جامعة الكويت، الكويت، 1995م، ص: 13.

قائمة المصادر والمراجع:

1. الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 14، 1987م.

2. بيل أشكروفت، جاريت غرفيت، هيلين تيفين: الرد بالكتابة / النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة: شهرت

الشمال" و"بندر شاه"، الحولية الخامسة عشر. الرسالة المائة واثنين، حوليات كلية الآداب، مجلس النشر العالي، جامعة الكويت، الكويت، 1995م

7. مجموعة مؤلفين: الطيب صالح عبقري الرواية العربية، دار العودة ، بيروت، لبنان، ط1، 1976م

8. مراد مزعاش: تجليات الصراع الحضاري في رواية موسم الهجرة إلى الشمال، مجلة إشكالات، مجلة دورية محكمة تصدر عن المركز الجامعي ـ تامنغاست ـ الجزائر، عدد 1، ديسمبر 2012م

المواقع الإلكترونية:

9. http://webcache.google.usercontent.com/search

10. https://ar.wikipedia.org/wiki/الطيب_صالح

العالم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط 1، 2006م.

3. جابر عصفور: موسم الهجرة إلى الشمال / تقابلات الطبيعة والوصف، مجلة العربي، العدد 564، نوفمبر 2005م

4. صالح فخري: في الرواية الفلسطينية، دار الكتاب الحديث، بيروت، لبنان، ط 1، 1985م

5. طارق ثابت: هوية الأدب بين الحضور والغياب في الخطاب النقدي العربي ما بعد الكولونيالي، مجلة الأثر تصدر عن كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح . ورقلة ـ الجزائر، ع 21، ديسمبر 2014م.

6. عبد الرحمن عبد الرؤوف الخانجي: رؤية الموت ودلالتها في عالم الطيب صالح الروائي من خلال روائيتي: "موسم الهجرة إلى